(١٥) العلماء والانغماس في الدنيا

د. صلاح:

تكلمنا عن أزمة العلماء وانفصالهم عن واقعهم وقلنا أنها بسبب الخواء الروحي فيُحرم الإنسان التوفيق في أن يجد حلًا لمشكلات الواقع وقد يساهم في مزيد من اليأس لدى الناس، والحل هو أن يَنشَط وينهض بالشعائر التعبدية التي تحُيي قلبه بحب الله تبارك وتعالى وتعظيم مقام الله عزَّ وجلَّ في قلبه.

و تكلمنا أيضًا عن هذا الانفصام عن الواقع بسبب الدراسات النظرية التي لا تعرف أبدًا أي نوع من التطبيق العملي حتى يتخرج الطالب من جامعته.

وانتقلنا بعد ذلك إلى أزمة العلماء مع الحكام، فهناك أزمة في العلاقة بين العالِم والحاكم إما حالة نفاق أو حالة تسويغ لما يفعله الحكام، أو حالة اضطهاد من الحكام للعلماء أو حالة انعزال فيكون كل منهم في مكانه لا يؤدي أحدهم دوره نحو الآخر، ووضحنا أن الحالة المثالية التي تفيد الحكام قبل العلماء وتفيد الأمة كلها بإذن الله تعالى هي حالة النصح الدائم والإصرار على هذا النصح ابتغاء وجه الله تبارك وتعالى.

وتكلمنا عن محور مؤلم وهو الصراع بين العلماء ووضحنا سببه الرئيسي وهو الحسد بين العلماء وعلاج هذا الأمر يحتاج إلى نقاء صدر، وإلى إخلاص وتجرد لله تبارك وتعالى، وأن يصل الإنسان إلى درجة عالية من الإيمان بحيث أنه يعيش منهجية {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف:١٠١]، فيتمنى هذا الإلحاق بالعلماء وإخوانه الصالحين.

و ذكرنا أيضًا في هذا الإطار غياب الرؤية التي يَعذر بها العالِم عالِم آخر، فلو أعذر بعضنا بعضا واتفقنا على الأولويات لانتهى هذا الصراع الذي يُفترض أن يساهم العلماء في إنهاء هذا الصراع أن وجد في فئات غيرهم، لا أن يكونوا هم طرف وسبب هذا الصراع.

والآن نتكلم عن جرحًا جديدًا، وهو أن يتاجر العلماء بعلمهم ويستخدمون العلم في التجارة، فلا تكون التجارة مع الله بل التجارة مع عباد الله، ويتحول العلم إلى سلعة يتكسّب بها هو فقط ويدور حول التكسب وليس أداء الرسالة .

د. راغب:

بداية نقول أننا نتكلم الآن في قضايا وجروح ومشاكل للأمة لكن بفضل الله نحن نضع أيدينا على حلها، فمثلا في مشكلة الخواء الروحي ذكرنا حلها في قيام الليل وذكر الرحمن كثيرًا وقراءة القرآن والارتباط بالله عزَّ وجلَّ.

عندما أنشئ عالِمًا ربانيًا وأُكَوّن هذا النبت الذي يُنتج بعد ذلك قائدًا ومُحركًا لنهضتها، فلا بد أن يتصف بهذه الصفات ويحذر الصفات الأخرى السلبية التي نذكرها.

لأن حديثنا قد يراه البعض صورة تصيبه بشيء من الإحباط أو اليأس أو القلق على مستوى الأمة، عندما يجد أن العلماء يتصارعون وأن العلماء يطلبون الدنيا أو أن العلماء يتزلفون للحكام، وأن العلماء ينفصلون عن واقعهم، لكننا ذكرنا الآتي:

١- أن الأمة لا يمكن بحال من الأحوال أن تخلو من عالِم صالح في فترة من فترات زمنها، فيبعث الله عزَّ وجلَّ من يجدد لها أمر دينها، فهذا أمر ملازم لهذه الأمة ومستمر معها.

٢- نحن نتكلم في هذه المشاكل لنعالجها ونصلحها وليس لنبكي عليها.

٣- إنني عندما أربي أحدهم، في منزلي أو في المدرسة أو في المسجد، أو في مجال الدعوة، ليكون عالِمًا ليغير الأوضاع لا بد أن نُحذر من هذه المحاذير وأن نحرص على زرع الصفات الإيجابية التي ذكرناها، وهي كثيرة بفضل الله لعلمائنا في السلف الصالح وفي علماء معاصرين لنا، ونسأل الله عزَّ وجلَّأن يكثر من أمثالهم وأن يعلي شأن الأمة بهم .

القضية التي نتكلم بها اليوم قضية حرجة للغاية، وهي قضية ليست جديدة بل هي لازمة للأمة إذا انفتحت عليها الدنيا، وحذرنا منها حبيبنا وقدوتنا صلى الله عليه وسلم، وهي أحد أكبر الأسباب لحدوث صراع بين العلماء ولحدوث تزلف من العلماء للحكام ولحدوث انهيار لهيبة العلماء وحدوث انهيار للعلاقة الروحية والتعبدية عند العالم عندما ينغمس فيها وينسى قضية الآخرة وبالتالي ينسى قضية العبادة والتوكل.

نلاحظ أن معظم الآفات التي ذكرناها من قبل لعل تبدأ نشأتها وأصلها من الحالة التي سنتكلم فيها وهي مشكلة انغماس العالِم في قضية وشهوة الإكثار من المال، التي هي في كل بني الإنسان وكل البشر، لكن عندما وجدت في العالِم تألمت الأمة بكاملها.

لقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الأمر وخاف على أمته منه وذكر انها تكون سببًا في الصراع بين المسلمين قال صلى الله عليه وسلم: «... فواللهِ لا الفقرُ أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تُبْسَطَ عليكمُ الدنيا، كما بُسِطَتْ على من كان قبلكم، فتَنَافسوها كما تَنَافسوها، وتُهْلِككم كما أهلكتهم».

الراوي: عمرو بن عوف المزني -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٣١٥٨

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

د. صلاح:

وهذا قانون واضح ويدل أنه عندما تنبسط الأرزاق بين العلماء وبين عموم الناس فيبدأ الطمع، والنفس لا تشبع إلا كما قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «لو كان لابنِ آدمَ واديان من مالٍ لابتغَى ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ».

الراوي: عبدالله بن عباس -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري -الصفحة أو الرقم: ٦٤٣٦

د. راغب:

وفي زمن الفقر لا يحدث مثل هذا الصراع، مع أن من يحللها بعقله قد يتصور أن الفقراء يفترض أن يكون هذا التنازع والتصارع بينهم لأنهم يبحثون عن الطعام، لكن الفقير غالبًا ما تكون نفسه صالحة وأما الفقير المتكبر فهذا قليل، لكن يحدث الكِبر والصراع عندما يزيد المال والأنا، كما في قوله تعالى: {أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا} [الكهف: ٣٤].

فعدما تكثر الأموال تحدث فتنة كبيرة ويغرق فيها جُلّ البشر، والقليل فقط هو من ينجو بنفسه، وكلامي ليس تشاؤمًا وإنما هو كلام رب العالمين سبحانه وتعالى: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ} [ص:٢٤]

كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «... أن الأكثَرينَ همُ الأقَلُّونَ يومَ القيامةِ، إلا مَن قال هكذا وهكذا وهكذا - عن يمينِه وعن شمالِه ومن خلفِه - وقليلٌ ما هم»

الراوي: أبو ذر الغفاري -المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٦٤٤٤

خلاصة حكم المحدث: [صحيح]

قليل هذا الذي إذا أوتي المال أنفقه في سبيل الله وسخره في خدمة الدين وأنفق به على الفقراء والمساكين ولم يتكبر به على الناس.

ومع أن العلماء شريحة من شرائح الناس، وإن كانت هي أعلى الشرائح فهم قادة الأمة وورثة الأنبياء، لكن أزمة الانغماس في الدنيا لا تترك أحدًا، حتى أن أفضل وأعظم الأجيال قد خاطبهم ربنا عز وجل، بعد يوم أُحُد بعد ما حدثت المصيبة كما سماها ربنا: {أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ} [آل عمران:١٥٦]، قسَّم هذا الجيل الذي اشترك في غزوة أحد إلى صنفين لا ثالث لهما وقال:{مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ} [آل عمران:١٥٢]، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (والله ما كانت أظن أنه من بيننا من يريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية).

وهذا الأمر متدرج يدخل في النفس دون أن تنتبه، فتجد العالِم يبدأ طريقه في منتهى الورع والإخلاص والإقبال حتى إذا كَثُرت أمام عينه الأموال والثروات ويكون لديه إمكانيات للأخذ أكثر ،عندها يسقط فيتنافس ويتصارع مع إخوانه الآخرين وتحدث مصيبة التجارة بالعلم، وخاصة العلم الشرعي، وهو أشرف العلوم قاطبة فكيف يتاجر به علماء الشريعة؟!

د. صلاح:

البعض قد يتصور أن العالِم يجب أن يعيش زاهدًا وهذا غير صحيح، فمن حق العالِم أن يجد حد الكفاف والكفاية ولا مانع أن يصل إلى حد الرغد، لكن أن يصل إلى حد الترف وأن يستكثر من المال بهذا العلم وأن يتخذ العلم وسيلة للتكسب فهذا الأمر يجعل العالِم ينزل من مستوى التاجر مع الله.

يقول الله : {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} [البقرة:٢٠٧]، وهذا النوع من الناس يختلف تمامًا عن من قال فيهم الله: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلا} [البقرة:١٧٤].

فالعالِم هنا لا ينظركم من أُناسٍ هداهم الله على يديه وإنما ينظر إلى كم من المال سيأخذ من برنامج يقدمه أو من مؤتمر يحضره وغير هذا.

أنا أعتذر إلى الله سبحانه وتعالى من علماء، إذا جازت التسمية هم أصحاب علم ضخم، لكن استجابتهم تتعلق بحجم العطاء المادي الّذي يُمنح لهم في قضية البث العلمي أو التعليم.

مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يا أَبَا ذَرٍّ لَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ آيه من كِتَابِ اللهِ خَيْرٌ لك من أن تُصَلِّيَ مِائَةَ رَكْعَةٍ وَلَأَنْ تَغْدُوَ فَتَعَلَّمَ بَابًا من الْعِلْمِ عُمِلَ بِهِ أو لم يُعْمَلْ خَيْرٌ من أن تُصَلِّيَ أَلْفَ رَكْعَةٍ»

سنن ابن ماجه ج١/ص٧٩

وقال المنذري: رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

ينظر الترغيب والترهيب (١/ ٥٤).

وقال: «من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا، سلك اللهُ به طريقًا من طرُقِ الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لَتضعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ رضًا بما يصنع، وإنَّ العالمَ لَيستغفرُ له مَن في السمواتِ، ومن في الأرضِ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ، وإنّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ، لم يُوَرِّثوا دينارًا، ولا درهمًا، إنما وَرّثوا العلمَ، فمن أخذه أخذ بحظٍّ وافرٍ»

الراوي: أبو الدرداء -المحدث: الألباني

المصدر: صحيح الترمذي - الصفحة أو الرقم: ٢٦٨٢

وقال رسول الله صل الله عليه وسلم: «... فواللهِ لَأن يُهدى بك رجلٌ واحدٌ خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ».

الراوي: سهل بن سعد الساعدي المحدث: البخاري

المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: ٢٩٤٢

فالإنسان يشعر بحالة رضى وغنى وسعادة عندما يجد أن علمه قد حمله التلاميذ وقد اهتدوا به وتغيروا وتأثروا فيكون هذا هو الأساس.

الأصل أن يوجد وقفٌ إسلامي في كل مكان لكن للأسف الشديد تحدث سيطرة الدول على الأوقاف، يجب أن ترفع الحكومات يدها عن الأوقاف كلها ويجب أن يديرها ناظروا الأوقاف وهؤلاء وكلاء عمن ماتوا وتركوا هذا الوقف أو من عاشوا وقدموا هذا الوقف للإنفاق على العلم والعلماء.

د. راغب:

أتصور أن يكون هناك ما يسمى ديوان الوقف وكان في تاريخ الأمة الإسلامية ما يسمى بديوان الأوقاف ومن يتولاه يتابع أن يصرف الوقف في ما أراده صاحب الوقف.

الأوقاف يتم مصادرتها على مدار السنوات وأحيانًا تُنهب الأوقاف على مدار السنوات، دمشق على سبيل المثال كانت قائمة بكاملها على الأوقاف، وكانت من المدن الرئيسية في العالم الإسلامي التي معظم أراضي دمشق وحوانيت دمشق ومتاجرها ومصانعها كل شيء فيها كان وقف.

وللأوقاف قصة رائعة في الحضارة الإسلامية، ولكنها أصيبت بمشاكل وآلام التي نتكلم فيها، لكن ماذا لو رفعت الحكومات يدها تمامًا عن الأوقاف فمن يديرها، عامة الناس أم العلماء؟

فأعتقد أنها ستعود في النهاية إلى الحكومة لكن يكون في نوع من الانضباط على وقفية الوقف، أم ماذا؟

د. صلاح:

الأصل أن تكون هيئة مستقلة عن الحكومة، وإن كانت الحكومة تدير هذا الأمر فسيكون عليها التأكد فقط من أن الأمور تسير في إطارها الصحيح، وإنما تحكمها فيها يُضعف الغرض الأصلي من الأوقاف بل هذا هو السبب الرئيسي في أن الناس لم تعد توقف لأنها لا تريد أن تضع الوقف تحت دائرة حكومية تنهب هذا المال أو تسيء إدارته أو تهمله.

فقضية الأوقاف أحد الحلول التي يجب أن نعود إليها.

وإخواننا في الغرب بالذات لأنه لا يوجد لديهم السيطرة على قضية الوقف كما يوجد في العالم الإسلامي، ومن ثم يكون هناك استقلال لدى العلماء، فلا يضطر العالِم أن يتسول حتى يعيش، وأنا أعتذر إلى الله أن تكون رواتب العلماء في بلادنا الإسلامي أقل من رواتب الخبازين والسباكين مع كل التقدير لكل هذه الفئات لأنها تقوم بدور حيوي للمجتمع، لكن هذا عالِم لا يمكن أن نحوله إلى شخص يتسول.

د. راغب:

إذا فهي ظاهرة لها مشكلتين:

- مشكلة أنه هناك علماء زادت اموالهم حتى فتنوا بهذا المال ويسعون وراء هذه الأموال ونسوا العلم الشريف الذي يحملونه.

- وبين عالم آخر مسكين لا يجد ما يأكله وما يشربه فيضطر أن يمد يده هنا وهناك، وبسبب الظروف الصعبة يُغير من مجال عِمله ومن مبادئه ليجد ما يكفي قوت أسرته.

د. صلاح:

وهذا لا يشفع له أن يغير من مبادئه، فلو صبر صبرًا جميلًا وآثر الآخرة على الدنيا وبدأ يعمل في أعمال أخرى غير التكسب من علمه الشرعي بطريقة مهينة، فلربما يفتح عليه الله أرزاق كثيرة.

د. راغب:

و من المؤكد أن حل القضية هو اليقين، سواء في الذي فُتِنَ بكثرة المال أو الذي فُتِنَ بقلة المال.

إن كان لديه يقين سيعلم أن الله عزَّوجلَّ هو الذي يرزق، وهو الذي سيمتحن ويختبر.

وعلى الأمة أن تكفل العلماء وتسعى إلى الوصول إلى حد الكفاية حتى يعيش حياة سوية وهكذا كان العلماء في تاريخ الأمة الإسلامية وفي قضية الأوقاف، وتكفل لهم هذا الأمر وفي نفس الوقت على العالِم أن يحذر ويراجع قلبه كل يوم ويسأل نفسه لماذا أجمع هذه الأموال هل حتى أعيش أم حتى أكثر من ثروتي وأنافس غيري.

ما يلفت نظري هذه الآيات المتكررة مع كل الأنبياء: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [الشعراء:١٠٩]، {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا} [هود:٢٩].

عدم وضوح هذه الرؤية لدى العلماء يهز الصورة ويضيع الهيبة ويسقط قيمة الكلام الّذي يُقال وأن كان منمقًا وأن كان جميلًا.

د. صلاح:

نحن ندعو إخواننا العلماء إلى أن يتعففوا وأن يكونوا أصحاب عزة وكرامة وأن يتمسكوا، بقوله تعالى: {وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ أن أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ١٠٩]، {وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالا أن أَجْرِيَ إِلا عَلَى اللَّهِ} [هود: ٢٩].

فيكون هذا الاعتزاز في تبليغ الرسالة وحمل الأمانة هو الأساس الذي يجب أن يتحرك به العالِم في منتهى العزة والكرامة.

ويجب على الدولة، وعلى الأسر، أن تساعد في إعزاز هؤلاء العلماء بأن توفر لهم ما يعيشون به المعيشة الكريمة، فلا يكون راتبه أقل من رواتب من أقل فئات المجتمع، فلا يعيش هذه المعيشة الكريمة ويفقد أولاده القدرة على التعايش مع بقية أبناء المسلمين ويعيش مهزوزًا في حياته.

فهذا في الأصل يجب أن يكون من مسؤولية المجتمع أما مسؤولية العالِم فهي أن يتعفف وهذا التعفف سيورثه العزة والكرامة وبه سيحافظ على هيبة العلم والعلماء.